طلاب الدنيا: وصفا ومآلا

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٢/٢٧م

يصور القرآن الكريم أيها الإخوة في نص من نصوصه حالة البشرية في مقاصدها ومنطلقاتها الباطنة، ويقسمها لصنفين:

- الصنف الأول : صاحب الإرادة التي تعلقت بالدنيا، وحينما يتحدث القرآن الكريم عن إرادة متعلقة بالدنيا فإنه يعني بذلك المادة، أي حينما تتعلق إرادة الإنسان بالمادة.

-الصنف الثاني: هو الصنف الذي يرجو الله واليوم الآخر.

من هذين المنطلقين: المنطلق المادي، ومنطلق الإيمان بالغيب، ولا يُعَدّ هذا الصنف الثاني الذي يؤمن بالغيب صنفاً خرافياً، لأنه الصنف العقلاني الذي استند في عقائده إلى منطقية عقلية، وهكذا يكون البشر نوعين:

- النوع الأول: الذي كانت أعمالهم سيئة أو حسنة منبعثة من خلال معايير مادية مجردة.

والنوع الثاني: الصنف الذي انطلق في إيمانه من المنطق والعقل ثم حين آمن بالغيب، آمن بالغيب على قناعة وأرضية ثابتة يقينية، ثم بدأ سلوكه بعد ذلك من خلال ما تعلقت به إرادته تلك.

نعم أيها الإخوة، قد تكون المشكلة عند المتأمل كبيرة حينما ننظر إلى صنف يفعل خيراً، لكنه لا يملك في باطنه معايير الغيب ولا تعلّقت إرادته بالغيب، إنه صنف أراد الخير، لكنه في نفس الوقت لم يكن يريد ذلك الخير من أجل المنطلق الغيبي المعتبر الذي هو الرجاء بالله واليوم الآخر.

لن أستطرد في المقدمة كثيراً فسأقرأ عليكم النص القرآني، ومن خلال هذا النص تظهر المشكلة التي أشرت إليها.

هذا النص من سورة هود يقول الله تعالى فيه : { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [هود:١٥-٢٤]

إن الذي يقرأ هذا النص يُلاحظ أن القرآن الكريم يعرض صورة فريقين اثنين:

الفريق الأول: هو الفريق المادي، ويقسمه إلى نوعين اثنين أيضاً:

- النوع الأول: الذي يثير الشفقة في القلب، وهو النوع المادي الذي أراد الخير
- والنوع الثاني: النوع المادي الذي أراد الشر.

ثم يجمعهما معاً يوم القيامة، لكنه يفرق بينهما في الدنيا.

ويعرض بعد ذلك للصنف المقبول عند الله.

إنه سبحانه وتعالى لم يترك هذا الصنف المادي الذي عمل الخير من غير إثابة، وهو لم يعمل هذا الخير من خلال مقصود معتبر، فكافأه الله سبحانه وتعالى وأثابه لكنه جعل ثوابه منحصراً في هذه الدار التي آمن بها..

إنه لم يؤمن بغير هذه المادة، وهل يعقل أن يكافأ في دار لا يؤمن بها، وهل يقبل المنطق السليم أن يُطلب للذي لا يعتبر الغيب مكافأة في الغيب.

لكنه سبحانه وتعالى وهو الذي يعامل عباده بالفضل والعدل أثاب الفريق الأول المادي، وجعل ثوابه منحصراً في الدنيا، لكنه في الآخرة جمع صنفيه الماديين: الصنف الذي عمل الخير، والصنف الذي لم يعمل الخير بل وأفسد في الأرض، فكان في مقابل الفريق الذي آمن بالله تبارك وتعالى.

إنه نص يضعنا أمام قضية مهمة وهي أن الأعمال لا تعتبر إلا حينما تستمد قيمتها من نيتها، فحينما تكون نيتها منبعثة من تعظيم صانعها وخالقها ومليكها، ومن الرغبة في إرضائه والتقرب إليه، والطمع في ثوابه...

في هذه الحالة تكون تلك الأعمال معتبرة في الدنيا والآخرة، وتكون خيريتها مستمرة وليست منقطعة.

تعالوا نقرأ هذا النص مع شيء من التأمل والإمعان، وما أحلى أن نستمد علومنا في مثل هذه المواقف ونحن نجتمع في الدرس الأسبوعي لا من خلال الأفكار والأهواء التي لا مستند لها، إنما نستمد الهدي من الله تبارك وتعالى، من كتابه الذي يهدي للتي هي أقوم.

{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا } فالبحث إذاً يركز على قضية الإرادة:

ماذا تريد أيها الإنسان؟ هل تريد الشهرة في الدنيا؟ هل تريد المنصب في الدنيا؟ هل تريك التكاثر المادي في الدنيا؟ هل تريد كثرة الأعوان والجند؟ هل تريد تعظيم الخلق؟ هل تريد إشباع النشوة؟ هل تريد أن تكون في جنة مادية دنيوية فيها ما تحتاج نفسك إليه من مأكل ومشرب ومنكح ؟

ما الذي تريده أيها الإنسان؟

أنت مطالب بفعل الخير على المستوى العملي، لكنك مسؤول وأنت تؤدي أدائك العملي: لماذا تؤديه؟

عند هذه النقطة يفترق الفريقان، الفريق الأعمى والفريق البصير.

أما الفريق الأعمى فإنه عانى عمى القلب.

فالإنسان أيها الإخوة جزءان جزء كثيف يتعامل مع الكثائف ويتحرك بين المادة ويؤدي ما تمليه الحاجات عليه على مستوى الفرد والجماعة، و جزء آخر في الإنسان هو الجزء اللطيف الروحاني القلبي، وحينما يُهمل الإنسان أحد جزئيه، ولا يتعامل إلا من خلال جزءه الكثيف، عندها سيكون غيبه مقطوعاً عن الغيب كالأعمى الذي ينقطع عن العالم الحسي الخارجي، وحينما يعمى قلبه ويلتفت إلى المادة وينقطع عن ملاحظة الغيب سوف يُحرم من قضايا كثيرة، فالغيب لا يعني أنه شيء خرافي لا وجود له، بل الغيب ما حُجب عنك، النعامة تضع رأسها في الرمال لعلها تحجب عينيها عن رؤية الخطر.

والذي لا يريد أن يعلم بقلبه أن الله تعالى حقيقة ثابتة، وأنه وحده المهيمن، وهو وحده الملك، وهو وحده الذي يتصرف في ملكه، وهو وحده الذي له الأسماء الحسنى، وهو وحده سبحانه الذي خلق الكون وأبدعه ونظمه في أحسن نظام، والقضية الثانية التي يعمى عنها أهل المادة، وجود دار بعد هذه الدار، ينتقل الإنسان إليها، هكذا أخبر الذي خلق الكون، هكذا أخبر الله الذي خلق الدنيا وخلق معها دار أخرى هي أجلّ وأعظم سماها الدار الآخرة، وحينما يعمى قلب الإنسان عن رؤية حقيقة مليك الدارين ويعمى عن وجود ذلك العالم الآخر، فإنه وإن عمل في هذه الدار خيراً لكنه لن ينال إلا خيرية هذه الدار.

{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } إنه سبحانه وتعالى يعلن لكل البشر، ويقول لهم: إن أنتم فعلتم خيراً من أجل الدنيا سوف أكافئكم فيها، وإن أنتم فعلتم من أجلي، ورغبة في ثوابي، وطمعاً في رضواني فإنني أعطيكم ما أعطي عبادي، وأحبابي المقربين { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } أي نعطيهم أجورهم وثوابهم كاملة غير منقوصة { وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ } أي لن أنقص من ثوابهم شيئاً، وهذا أيها الإخوة لا ينحصر في ماديّ كفر بالآخرة، إنما ينسحب على كل عمل أراد الإنسان به مقصودًا من المقاصد المادية، فقد ورد عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن نار جهنم أول ما تُسجر وتوقد بثلاثة أنواع:

- أما النوع الأول: فإنه عالم في الصورة الإسلامية، يوقفه الحق سبحانه وتعالى ليسأله، لماذا تعلمت، لما علّمت،...؟ يقول: من أجلك يا رب، يقول: لا، كذبت. وتقول الملائكة: كذبت، إنما تعلمت ليقال عنك عالم، هذا هو أجرك، لتنال الجوائز العالمية، ليقول العالم عنك أنت الأعلم وقد قيل، فيؤخذ إلى النار.

- ويؤتى بمنفق أنفق الأموال الكثيرة في الخير، يقول الله تبارك وتعالى: لماذا أنفقت أموالك؟ يقول: إرضاءً لك يارب، يقول: لا، كذبت. إنما أنفقت ليقال عنك جواد، ليقال عنك كريم، وقد قيل، فيؤمر به إلى النار.

- ويؤتى بالمقاتل الذي أبلى بلاء حسناً، وأُعطي الأوسمة والنياشين، الذي فعل ما يفعله الأبطال في الدفاع عن أرضه وعرضه، لماذا قاتلت؟ يقول: من أجلك، يقول: كذبت تقول الملائكة: كذبت، إنما قاتلت ليقال عنك شجاعاً، وقد قيل، فيؤمر به إلى النار.

إذاً هذا النص القرآني لا يخاطب مادياً كفر بالآخرة وحسب، إنما يتحدث عن كل مخلوق من مخلوقات الله المكلفة في جزئيات أعماله.

{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ } فقد نال ثوابه، وعمي قلبه، وغفل عن الحقائق الغيبية { وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا } أي لم يعد ذلك العمل الحسن الذي أثيب عليه في الدنيا معتبراً في الآخرة، فقد قيمته، أصبح عملة زائفة لا تداول لها.

{ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } فصارت أعمالهم الحسنة في اعتبارها مساوية للأعمال الباطلة، لأنه استوفى نصيبه من الثواب، الذي أعطاه الله تبارك وتعالى في الدنيا.

وبعد أن أعلن هذا الإعلان، قال سبحانه وهو يظهر التباين بين هذا الفريق والفريق الذي آمن، وانطلق من الحقائق اليقينية، فلم يكن إيمانه كإيمان البوذية والمجوسية، أو الوثنية التي تختلق الخرافات.

اسمعوا ما يقوله الله تبارك وتعالى في هذا الفريق: { أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } هكذا يريدنا الله، إنه سبحانه وتعالى لا يريدنا في التقليد الصوري الذي نكون فيه كالببغاوات.

{ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } انطلق إلى إيمانه من خلال حقيقتين ثابتتين.

القرآن الذي أنزله الله تبارك وتعالى، ويشهد أنه كلام الله ما فيه من الإعجاز وما فيه وما فيه، ومحمد رسول الله هذا النبي الأمي الذي حُبب الخلاء إليه، وابتعد عن الناس وقال حين هزّه جبريل لست بقارئ، فقال له: { اقرأ باسم ربك } فقرأ وأقرأ وعلّم، حتى حارت العلماء في علومه، وبيّن حتى سمّاه الله البينة، إنه تبارك وتعالى في شرح البينة أنزل سورة في القرآن اسمها البينة، وبين فيها منطلق الإيمان بعنصريه القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام حين قال سبحانه: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً) [البينة: ١-٢] فإن أنت دققت في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم كيف خرجت من العزلة لتفيض على العالم من الوحي وأنواره وهدايته ورحمته، ما يحتاج العالم اليوم إليه، بل وتحتاج البشرية إليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، شخصية محمد صلى الله عليه وسلم.

ونحن في الشهر الذي عنوانه محمد رسول الله، الذي ينبهنا إلى هذه الشخصية التي جعلها الله سبحانه وتعالى نبراساً وإماماً.

إذاً لم يكن إيمانه بالغيب فوضوياً أو عشوائياً، إنما كان إيمانه منطلقاً من قراءة فاهمة واعية لشخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والصحف القرآنية المطهرة التي امتلأت بالعلم والفهم والحكمة والرشاد.

{ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } القرآن أيها الإخوة يصدمنا ببيان عجيب، ويتلوه، بعد أن وقفت أمام هذا الدليل الدامغ تبع ذلك شاهد مستمد من البينة، إنه سبحانه وتعالى يشير إلى قوله: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ } [فصلت : ٥٣] سوف تظهر العجائب التي أخبر القرآن الكريم بها، سوف تظهر العجائب التي أخبر بها محمد صلى الله عليه وسلم.

{ وَيَتْلُوهُ } أي ويتبعه { شَاهِدٌ مِّنْهُ } لا من غيره، فأنت كل يوم ترى حقيقة تحدث القرآن عنها، وهاهي تمثل أمامك، وأخبر عنها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهاهي تمثل أمامك، فأنت كل يوم أمام شاهد ، أنت تقرأ القرآن وتحاول أن تفهم شخصية محمد عليه الصلاة والسلام، لكنك أمام الشواهد المتتالية، أنت كل يوم أمام شاهد ورد إليك من البينة،

{ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى } إذا أردت أن تثق، فالقرآن، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضية يشهد لها تاريخ سبق ومستقبل لاحق، التاريخ الذي سبق، الأقرب الذي تتداوله البشرية: كتاب موسى.

حدثني أحد علماء النصارى بعد أن استحلفته بالله وطلبت منه أن يصدق معي وما علمت عليه إلا الصدق، حدثني فقال: أنا أعجب، وقد سألته عن قضية وجود شخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأن الله سبحانه وتعالى في القرآن يخبرنا ويقول:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } [الأعراف:١٥٧]

إذاً القرآن يُخبر أن وصف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم موجود في التوراة وموجود في الإنجيل، قال لي: أما وصفه في التوراة فإنني أعجب لماذا لم يؤمن اليهود به، لأنه المنتظر الموصوف بدقة في العهد القديم، قال: أما المسيحية فإنها تصرف وصفه إلى المسيح.

إذاً المحقق والمدقق يرى ما كان في التاريخ، وما يأتي في المستقبل، ماذا تريد بعد هذا؟

إذا كنت تصر على ماديتك، ماذا تريد بعد هذا؟

الشاهد محمد رسول الله والقرآن، وأمامك بعد البينة والدليل محمد رسول الله والقرآن، مستقبل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يأتيك كل يوم شاهد من خلال هذا الدليل، وأنت أمام بيان تاريخي يقول: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } [الفتح : ٢٩] .

فلماذا لا تؤمن؟ ما حجتك في ترك الإيمان؟

{ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً } بمحمد صلى الله عليه وسلم، وشهد بالقرآن { أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ }

أي الذين انطلقوا من البينة والتدقيق في هذه الحقائق اليقينية معتبر إيمانهم. (أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ)

إذاً ربنا سبحانه وتعالى حينما يعلن ذلك الإعلان ويقول: { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } نكافؤ المادي على عمل الخير في الدنيا، ثم النار تنتظره بعد ذلك، القضية ليست قضية تعسّفيّة، إنه أمام بيّنة وشاهد وتاريخ، ثم أعرض بعد ذلك!

أنظر إلى تعبير القرآن حينما يختصر كل الذين أعرضوا عن القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام فيجمعهم في كلمة: { الأَحْزَابِ }

باختصار { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون : ٥٣]

كل منهج وضعيًا كان أو سماوياً قديماً فإنه لا اعتبار له بعد ظهور البينة محمد والقرآن.

فجمعهم الله سبحانه وتعالى في تعبير مختصر سماه { الأَحْزَابِ } .

إنها الاتجاهات التي تحيد عن الحق، والحق لا وجود له إلا في القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام.

{ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ } أي لا تشك في هذا الموعد، وفي هذا بيان يلغي كل الاحتمالات، وحاشى أن يشك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الموعد، لكنه تأكيد رباني لهذه الحقيقة { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ } فالموعد حق { إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ }

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا } وهكذا يلخص مضمون المناهج التي تتبناها الأحزاب التي أشار إليها، الاتجاهات كلها التي حادت عن القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام.

المضمون { افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا } حرّف منهج سماوياً أو وضع منهج بشرياً.

يلخص المضمون أيضاً بعبارات موجزة مجملة يتحدى فيها،ويظهر قوته العِلمية والمنطقية والبيانية.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا } إذاً الذين حادوا عن هذه الحقيقة جمعهم في كلمة الأحزاب، وجمع مضمونهم في { افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا } .

{ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } أي يوم القيامة { وَيَقُولُ الأَشْهَادُ } مَن الأشهاد أيها الإخوة؟

الذين سوف يقفون يوم القيامة من أجل أن يقرروا وصفاً ومآلاً وهم بهذا ينقلون بصدق عن الله.

الأشهاد هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد قال الله سبحانه وتعالى: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } فالرسل هم الأشهاد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا محمد هو شهيد الأشهاد.

{ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } [النساء: ٤١] يقف الأشهاد وعلى رأسهم البينة محمد صلى الله عليه وسلم.

اسمعوا إلى البيان الذي يقرره الأشهاد، ماذا يقول الأشهاد وهم يتحدثون عن أوصاف الماديين الذين أعطاهم الله سبحانه وتعالى فرصتهم في الدنيا، وقدم إليهم البينات فأعرضوا؟

يتضمن كلام الأشهاد قضيتين:

القضية الأولى: يذكرون أوصاف الماديين.

القضية الثانية: يذكرون مآلهم.

في أوصافهم:

أولاً: يصفونهم بأنهم الكاذبون، فقد كذبوا في ادعائهم بأنهم يملكون منهجاً يتفوق على منهج القرآن، يتفوق على الوحي، يقول الأشهاد كما يحكي النص القرآني: { هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ } أي الذين وصفهم بالأحزاب، ويقول الأشهاد: { هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ }

الوصف الثاني :المطرودون من الرحمة، مع أن الرحمة واسعة: { أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } واللعنة الطرد من الرحمة ، إنه ظلم فاستحق الطرد، ظلم باعتقاده وظلم بسلوكه.

ثالثاً: الذين تآمروا من أجل أن يصدوا الناس عن طريق القرآن، مكروا في الليل والنهار وخططوا لصد الناس عن طريق الحق { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ }

الوصف الأول: الكاذبون، الوصف الثاني: المطرودون من الرحمة، الوصف الثالث: المتآمرون من أجل الصد عن طريق الحق الأوحد.

الوصف الرابع: الراغبون في الاعوجاج والانحراف السلوكي: { وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا }

إنهم يخططون لتحليل الأخلاق، يخططون لإفساد الأجيال، يخططون لقطع الإنسان عن إنسانيته ليتحول إلى آلة متحركة: { وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا }

الوصف الخامس: بنوا كل حساباتهم على المادية وانقطعوا عن الغيب { وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ }

ثم يأتي بعد هذا التقرير الذي يذكر أوصاف الماديين الخمسة ليعرض المآل.

ما مآلهم؟ ما نتيجتهم؟

أولاً: هل بقي لهم أثر { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧]

إذاً أولاً: هلكوا بعد إفساد وبعد ظهور، وصاروا أثراً بعد عين { أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ } لا بقاء لهم في الأرض، لابد لهم من نهاية وحصلت النهاية.

ثانياً: كان الأنصار من حولهم ينصرونهم وكان الجنود يعضدونهم، لكنهم انتقلوا هناك إلى دار لا يجدون فيها عوناً ولا نصيراً: { وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء } لا نصير لهم يقوم بخدمتهم، ويحفظ شأنهم.

ثالثاً: ينالون من العذاب أضعاف غيرهم، لأنهم كانوا يبغونها عوجًا، ففسدوا وأفسدوا غيرهم، فكان في صحائفهم كل من انحرف بسببهم { يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ }

رابعاً: عطلوا في الدنيا أسماعهم وأبصارهم فعطل الله أسماعهم وأبصارهم في الآخرة: { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } وهو يشير سبحانه وتعالى إلى قوله: { خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ } ساكنة لا يستطيعون الرؤية { خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [القلم: ٤٣]

لكنهم امتنعوا عن السجود لله، وسجدوا لشهواتهم، وسجدوا لغرائزهم، وسجدوا لمصالحهم

{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [الملك: ١٠] { أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الملك : ٢٢]

إنهم في حالة من فقدان توظيف الحواس، المتكبرون كما ورد في الحديث والمتجبرون يحشرون كأمثال الذر يطأهم الناس يوم القيامة بأقدامهم { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ }

خامساً: الخسارة الأبدية التي ينالونها في الآخرة: { أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ }

سادساً: لم يبق من كذبهم وافترائهم الذي درجوا عليه وهم يجادلون في مناهجهم، لم يبق منها شيء عند ظهور الحق { وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } .

سابعاً: يجزم بعد ذلك الأشهاد، الرسل عليهم الصلاة والسلام، يقولون بصيغة القطع والجزم { لَا جَرَمَ } والجرم: القطع { أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ }

أي قطعاً هم الأخسر من الذين خسروا شيئاً من المادة وآمنوا بالغيب.

اليوم الرهان والمعادلة، أيهما أي الطريقين تفضل؟

هل تفضل أن تخسر شيئاً من المادة في سبيل الله، أم تفضل أن تخسر الآخرة بسبب المصلحة المادية؟

أجب نفسك بنفسك، أجب على هذا السؤال، اسأل نفسك، هل تريد أن تكون الأخسر، والأخسر هو الذي يفقد أكثر، الذي يفاجئ بخسارة ما بعدها خسارة { لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } فما بعد خسارتهم خسارة.

وبعد أن ينهي هذا البيان أيها الإخوة يختم بعبارات موجزة لا تفصيل فيها في هذا الموضع، لأن هذا الموضع يراد منه التنبيه إلى خطر إرادة المادة، لكنه كما عودنا لا يختم دون أن يوجهك أو يذكرك بالمنهج.

ويذكر الدين في أركانه الثلاثة في عبارات موجزة عجيبة.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } إنها أركان الدين الثلاثة أيها الإخوة

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا } اتصلت قلوبهم بالغيب من خلال البينة، من خلال يقين يستند إلى أدلة.

{ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } المقام الأول الذي أشار إليه أو الركن الأول أشار إلى ركن الإيمان ثم أشار إلى ركن الإسلام الذي هو العمل الصالح المنضبط.

ثم تحدث عن الركن الثالث الذي طالب أهل الإيمان به، الذي هو ركن الإحسان فقال:

{ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ } والإخبات: السكون، استسلموا لربهم، سكنوا إلى موالاهم، كان مولاهم سيداً لهم، توجهت أرواحهم إليه، انجذبت أرواحهم إلى حضرته، توكلوا عليه، فوضوا أمورهم إليه، اعتمدوا عليه.

{ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

{ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } [هود: ٢٤]

أيها الإخوة، إنه بيان قرآني يدخل إلى أعماق النفس، يقدم إليها إن كانت تدّعي المنطقية منطقية، يقدم إليها إن كانت تدعي الواقعية واقعية، يقدم إليها إن كانت تدعي التوثيق التوثيق.

اللهم لا توجِّه قلوبنا إلا إليك، ولا تجعل اعتمادنا في الأمور كلها إلا عليك.

أقول هذا القول وأستغفر الله.